متاهة عارف الريس

عرفناه فناناً متحرراً من كل القيود التقليدية: اجتماعياً، سياسياً، أخلاقياً، وفي الأخص فنياً. إنه عارف الريس الفنان المبدع الذي يعيش أحلامه ورؤاه مستوعباً الزمن المعيش، متخطياً إياه في لوحةٍ ومنحوتةٍ تصنعان زمنهما اللامتناهي. إنه رمزٌ من هذه الأرض: مناضلٌ، متمردٌ، حرٌّ، مشاغبٌ، ثائرٌ، عالي الهامة، غيرُ خانعٍ، صوته يرتفع دفاعاً عن الحق، مناصراً صاحبه، سلاحُهُ في كل ذلك الموقفُ والكلمةُ القاطعة كحد السيف.

عرفتُهُ أستاذاً لا كالاساتذة، وعرفتُهُ فناناً مجنوناً بالفن والجمال، وزميلاً يناصر الفنانين من أبناء جيله، كما الفنانين من أجيال الشباب. لم تنقصه يوماً الروحُ الفتية الشابة المتعطشة أبداً للعطاء والحب والمغامرة. ففي شخصيته طرافةٌ محببةٌ وغيرُ عادية. موجاتُهُ اللاقطة تخطف الأسرارَ وتقرأ المواقفَ والإشاراتِ بسرعة البرق. دائم الأُهبةِ للمواجهةِ الصريحةِ بأسلوبٍ فيه الفروسيةِ والبراءة البدائية والتهكم الساخر ما يجعله كائناً عميقاً وغيرَ مسطَّح، حتى ليحتارَ المرءُ هل هو جادٌ أم مهلوسٌ أم عبثي؟!

أنتَ الآن في حضرته فإذا هو يعرفكَ من أزمنة. يتكلم معك كمن يتابع حديثاً بدأه من أعمارٍ سابقة. أسلوبٌ يفاجئ الكثيرين لكنه يكشف كم أن الفنان أليفٌ وفريدٌ في التصرف الذي يخترق المسافةَ الفاصلة بين الناس ويردمها بمحبةٍ سرعان ما تقيم صروحَها بين القلوب. بساطتُهُ من طينة النبل، مواقفُهُ إقدامٌ وشهامة. فنّه عطاءاتٌ متشعبةُ التجارب والرؤى لكنها تصب كُلها في خانة البحث عن الذات. الذات المتحدة بضمير الجماعة، لا الذات الأنانية. غزيرٌ في عطاءاتِهِ الفنية، تلويناً ورسماً ونحتاً ولصقاً...

أعمالُهُ مشبعةٌ بالرمز والإشارات والهلوسة المحيِّرة مما يجعلها متاهاتٍ كبرى يدخلها المشاهدُ كأنه الرسامُ نفسه. ولن نعرف أبداً كم هو قادرٌ على الخروج من هذه المتاهات وعلى إخراج الآخرين منها. ذلك شأنٌ طبيعي، إذ كيف لفنانٍ أن يخرجَ من ذاته؟ والى اين؟ هذه هي المتاهة. هذه هي متاهةُ عارف الريس.

صادقٌ عارف الريس في حياته وفي فنه، فهو يعيش يومَه متقلباً في حزنِه الغائر وفي أمله المتخيَّل لكن الهارب دوماً كالسراب. هذا معناه أن الفنان متداخلٌ، متشابكٌ، كثيرٌ ومتعدد. فتنتابه آلامٌ وتمزقاتٌ تصل به الى حدّ الانفجار، لكنها لا تلبث أن تهدأ كمن يجد خلاصاً ووئاماً. إنه سلامُ الفنان لا استسلامُهُ. وبين حدَّي الانفجار والسلام، تتفجر لوحتُهُ ألواناً وخطوطاً مجبولةً بالصخب والتداخل والرموز المكثفة والأهداف البعيدة...

قلِقٌ ومتوتر. عارف الريس. تعصف الحياةُ به كما تعصف ريشتُهُ وإزميلُهُ بسطح لوحته وبحجم أحجاره، خارجاً على القواعد المألوفة والتزيينية، جارحاً العمر، جاعلاً فنَّه محمولاً على القسوة التي تصنع منها الحياةُ نسيجَها. سموحٌ مع زملائه في الحياة والفن، يجد دوماً المبررات للسكوت على أخطاء الآخر ونسيانها. يؤمن بأن لكلٍ منا ظروفَه وأزمنتَه ومعطياتِه، فيصفح ويحرر نفسه من رواسب الضغينة والألم والمرارة.

مثقفٌ هو عارف الريس، وثقافتُهُ متراكمةٌ ومتعددةُ الأوجه، وهي تشبعت بفعل الأسفار والتردد على محترفات الفن العالمي الكبرى. فمن المرحلة الافريقية، وهي في مجملها مناظرُ طبيعية مؤسلبة، الى مرحلةِ الزمن والجدار حيث استعمل وللمرة الأولى في لبنان الرملَ والغراء في تنفيذ أعماله، فإلى مرحلة الفضاء الضائع برموزه وأجوائه الملونة، وقد نفّذها خلال إقامته في إيطاليا، الى مرحلة بساط الريح. الى مرحلة دماء وحرية، وهي مرحلةٌ رؤيوية يحدس فيها بالحرب اللبنانية قبل وقوعها. الى مرحلة الحب والموت ومرحلة فصولٍ من العالم الثالث والزهور وزهرات شارع المتنبي، وهنا وقفتُهُ الإنسانية مع أضعف خلق الله وأدناهم في نظر المجتمع. إلى مرحلتي الحروفية النصبية والصحراء في السعودية حيث أمضى عشرَ سنين في حياكة صارمة للواقع وفي مراقبة الرمال والطبيعة الخلاء. الى المرحلة اللندنية وفيها أكمل ما بدأه في السعودية، منتقلاً الى رسم الوجوه هناك. الى مرحلة الكولاج الساخر وفيها تطرق الى الموضوعات الآنية من سياسية واجتماعية، والى نجمته الليدي ديانا. فإلى مرحلة الألف والواحد، وهي أعمالٌ نحتية حروفية، وأخيراً المرحلة الحالية وفيها كآبةٌ ظاهرة. كما الخوف والغرائبية والتخيلات. إنها مرحلةُ التأمل في الوجود والحياة والموت، تتمازج مع مرحلة بساط الريح والمناخ الإفريقي، وتترافق مع مرض والده وموته، وهو الأبُ والصديقُ والمحرِّض على العمل والإبداع.

نكتشف في كل هذه المراحل فناناً يوازي النبع تدفقاً وعطاءً لا ينضبان. فنحن مع هذا المبدع في نجاحاته وسقطاته، في خيباته وانتصاراته. معه كمؤسس لحركة فنية ثقافية فاعلة في ضمير الأمة، ومعه كأحد مؤسسي معهد الفنون الجميلة وجمعية الفنانين اللبنانيين للرسم والنحت، ومعه كأستاذ، ومعه كإنسان ملتزم الفن وقضايا الوطن وهموم المجتمع والناس. نحن معه في المتاهة.

مزرعة يشوع في ٩٩/٩/٢٤

رئيس جمعية الفنانين اللبنانيين للرسم والنحت

مـــارون الحكـــيم